استقبال

لم تشهد[1] مصر مثله قبل اليوم ، ولن تشهد مصر مثله بعد اليوم . سيكون هذا فى حياة مصر شاذًا فى تاريخها مهما يطل ومهما تبعد به العهود ، لأن رئيس الوزراء الذى ستستقبله مصر اليوم رجل فذ بين المصريين ، بل بين الشرقيين . لم تعرف مصر ولا الشرق مثله قديما ولن تعرف مصر ولا الشرق مثله حديثا .

ومتى رأى الناس مريضا يحكم حكم الأصحاء ، وضعيفا يحكم حكم الأقوياء ، وبعيدا يحكم حكم القريبين ؟ ومتى رأى الناس وزيرا يقنع الفقير المعسر بأنه غنى موسر ؟ والجائع المحروم بأنه مكتظ متخوم ؟ والخائف الجازع بأنه آمن وادع ؟ والمستعبد المستذل بأنه حر مستقل ؟ بل متى رأى الناس فى العصور القديمة والحديثة ساحرا كرئيس الوزراء قد خلب القلوب والعقول ، وسحر الأفئدة والنفوس فلم يصلح شيئا ، وأقنع الناس جميعا بأنه أصلح كل شيء .

وحياة الناس لا تعتمد على الحقائق والوهم ، فهم سعداء ، وهم راضون متى خيلت إليهم ذلك ، وأقنعتهم به ، وسواء عليهم بعد هذا

---

(١) ٥ - ٩ - ١٩٣٣

أكانوا سعداء فى حقيقة الأمر أم لم يكونوا . وقد نجح رئيس الوزراء نجاحا باهرا ووفق رئيس الوزراء توفيقا عظيما . فليس فى مصر الآن من يحسّ جوعا ولا ظمأ . وليس فى مصر الآن من يشكو فقرا ولا عسرا ، وليس فى مصر الآن من يخاف ظلما ولا عدوانا . وإنما الناس جميعا سكارى وما هم بسكارى ، قد سحرهم رئيس الوزراء عن حقائق الأشياء فقنعوا ورضوا ثم ملكهم الإعجاب وازدهاهم الإكبار فإذا هم لا يرون لمصر إلا منقذا واحدا ، هو رئيس الوزراء . وإذا قلوبهم كلها تلتف من حوله ، ونفوسهم كلها تطيف به ، وأشخاصهم كلها تهرع إليه . وإذا هو سيصل إلى الاسكندرية مساء اليوم فيرى معجزة من هذه المعجزات التى تعود أن يراها حتى هانت عليه وصغرت فى نفسه ، وأصبح لا يقيم لها وزنا ولا يحسب لها حسابا .

سيرى خمسة عشر مليونا من المصريين قد خفوا جميعا لاستقباله والاحتفال به ، لم يتخلف منهم شيخ فان ، ولا صبى ضعيف ، ولا طفل رضيع . لم يقعد منهم رجل ولا امرأة ، وإنما احتشدوا له من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ، ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب . ووسعتهم كلهم مدينة الإسكندرية ، بل وسعهم كلهم هذا المكان الضيق الضئيل الذى سترسو فيه السفينة ، وستشرق فيه الشمس من مغربها حين يطلع على الناس رئيس الوزراء .

لو حدث بعض هذه المعجزة ، خمسها أو عشرها أو دون ذلك لأعظم الناس قدرا ، وأجل الناس خطرا ، وأرفع الناس شأنا ، وأبعد

الناس ذكرا ، لفتنه واستهوى قلبه ، وتجاوز به حد الرزانة والحلم والاعتدال ، ولكن رئيس الوزراء لا يفتنه ذلك ولا يزد هيه أكثر من ذلك ، فهو قد بلا ذلك كله ، حلوه ومره حتى عرفه فأحسن معرفته ، وحتى ضاق به وزهد فيه ، فسيشرف رئيس الوزراء إذن مساء اليوم على هذه الأمة المكرمة له ، الفانية فيه ، ثم يلقى عليها نظرة زاهدة ، فيها شيء من الملل والسأم ، وفيها شيء من التفضل والتعطف ، ثم يشير رئيس الوزراء بإحدى أصابعه إلى هذه الأمة أن انصرفى مشكورة مأجورة ، فقد نهضت بالحق لأهله وأديت ما عليك فعودى إلى ما أنت فيه من عيشة راضية ، ونعمة سابغة وصفاء مقيم ، ورخاء لا يريم وابتسام للحياة .

ثم يلقى ستار ، ويرفع ستار . فأما الستار الأول فسيلقى على هذه الفصول الفكاهية التى لم تمثل لمصر وحدها ، وإنما مثلت لمصر ولفرنسا وللعالم كله ، حينا فى فرسايل وحينا فى الإسكندرية ، وحينا فى محطة من محطات باريس والتى ألهت الناس وأضحكتهم فى مصر وفى غير مصر منذ أسبوع . فقد رأى الناس أن الوزارة القائمة كانت قوية ثابتة ، ولكنها عرضة للتعديل صباح الثلاثاء . ثم رأى الناس أن الوزارة قد تستقيل مساء الثلاثاء ، ثم رأى الناس أخذا وردا ، وتهاونا وشدا ، ومفاوضات يخفق بها البرق ويتموج بها الهواء ، ثم رأى الناس قوة على مصر ، فيها إنذار بالاستقالة ، وضعفا أمام الإنجليز فيه استعطاف واستجداء . ثم رأى الناس تعجلا لتحديد الموعد الذى يتشرف فيه رئيس الوزراء بالمقابلة الملكية ، ثم انتظر الناس ونشر لهم

برنامج مفصل للاستقبال والاحتفال والمقابلة وانفراج الأزمة باعتزال الحكم أو البقاء فيه .

على هذا كله سيلقى الستار الأول . أما الستار الثانى فسيرفع عن جد قد يكون خالصا ، وقد يكون مشوبا بالفكاهة . فقد غير البرنامج تغييرا فجائيا كما ترى فى غير هذا المكان ، وظهر أن المقابلة الملكية قد تكون بعد ظهر اليوم وظهر أن السفينة استطاعت أن تزيد سرعتها وأن تقدم وصولها إلى الثغر ، وظهر أن الأمر أجل خطرا مما كان يظن ، وأن الذين إليهم الأمر لا يريدون أن يطاولوا فى وضع حد لهذه الأزمة التى مهما يكن حظها من الفكاهة فإنها لا تخلو من خطر لما تثير فى نفوس الناس من العواطف المختلفة والميول المتناقضة ولما قد تحدثه هذه العواطف والميول من أثر فى حياة الناس . وإذن فسيبدأ القسم الجدى من هذه القصة منذ اليوم إن سمحت بذلك صحة رئيس الوزراء ، وسيتبين المصريون بعد وقت قصير أمر هذا الحديث الطويل الذى أثاره رئيس الوزراء منذ أسبوع : أكان جدا أم هزلا ؟ أكان إقداما أم كان فنا من فنون المداورة ؟ ولونا من ألوان الاختبار ؟ وسواء أصمم صدقى باشا على الاستقالة أم عدل عنها ، وسواء أقبلت الاستقالة أم لم تقبل ، فإن هناك حقيقة واقعة قد ظهرت كأوضح ما تظهر الحقائق الواقعة ، ولم تدع لأحد قدرة على أن يلقاها بقليل من الشك أو كثير . وهذه الحقيقة الواقعة الساطعة هى أن الأمة المصرية كلها – إلا الذين يعيشون لرئيس الوزراء ، وبرئيس الوزراء – قد ابتهجت واستشعرت الغبطة والرضى حين ألقى إليها أن هذه الوزارة القائمة قد تستقيل .

كما أن الأمة المصرية كلها – إلا الذين يعيشون لرئيس الوزراء وبرئيس الوزراء – قد ابتهجت واستشعرت الغبطة والرضى حين ألقى إليها أن المندوب السامى قد نقل . ومعنى هذا الابتهاج لهذين الحدثين أن الأمة المصرية كلها – إلا الذين يعيشون لرئيس الوزراء وبرئيس الوزراء ضيقة أشد الضيق بسياسة هذا العهد ، منكرة أشد الإنكار لهذه السياسة ، حريصة أشد الحرص على أن تخلص منها ، وعلى أن ترى الذين أقاموها وقد حيل بينهم وبين الحياة العامة وتصريف شئونها . وقد تفهم إرادة الأمة هذه على وجهها ، وقد لا تفهم ، وقد يحال بين صدقى باشا وبين الحكم ، كما حيل بين السير برسى لورين وبين تمثيل الإنجليز فى مصر ، وقد لا يحال ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه ، هو أن إرادة الأمة هذه واضحة جلية وأن لها قيمتها وخطرها ، وأنها إن أهملت اليوم – كما أهملت منذ ثلاثة أعوام – فإن هذا الإهمال لن يغنى ولن يفيد ، كما أن إهمال إرادة الأمة منذ ثلاثة أعوام لم يغن ولم يفد .

ومهما تكن النتيجة التى ستتكشف عنها الحوادث اليوم أو غدا فإن الشىء الذى لا يقبل شكا ولا مراء ، هو أن المصريين قد أظهروا اليوم كما أظهروا منذ ثلاثة أعوام ، بل أكثر مما أظهروا منذ ثلاثة أعوام ، وسيظهرون غدا أكثر مما يظهرون اليوم ، أنهم لا يرضون – مهما تكن الظروف والخطوب – أن يحكموا على غير ما يريدون وأن يساسوا بغير ما يحبون ، أو يقضى فى أمرهم وهم غائبون ، أو يتخذوا وسيلة إلى مناصب الحكم وما يتصل بها من الجاه والسلطان ، وأنواع المغانم والمآرب القريبة أو البعيدة .

إنما يريدون اليوم ، كما أرادوا من قبل وسيريدون دائما أن ترد أمورهم إليهم ، وأن يحكموا هم لمصالحهم ، لا لمصالح الأجانب مهما يكونوا ، ولا لمصالح قلة مصرية مهما تكن . فإذا فهم هذا كله على وجهه ، فليس من شك فى أن أمور مصر ستجرى على أحسن حال . وإذا لم يفهم هذا كله على وجهه فليس من شك فى أن المصاعب ستزداد ، وفى أن المشكلات ستضاف إلى مشكلات ، وفى أن الكوارث التى أخذت تطيف بهذا البلد ، والتى تدنو منه فى غير أناة ولا تمهل ، ستلم فى يوم قريب فلا تجد لها مصر دفعا ولا ردا ، وستكون آثار الكوارث شاملة لا تؤثر فريقا دون فريق ، ولا تصيب الظالمين خاصة وإنما تلم بالمسىء والبرىء . والله قادر على أن يلهم الناس من أمرهم رشدا ، وعلى أن يبين للناس أن سياسة الاستئثار وتسخير الشعوب لنفر قليل قد مضى عليها الزمن ، وأصبحت شيئا لا ينتج خيرا ما ، ولكنه ينتج شرا كثيرا .